الفصل الثاني عشر

أطماعٌ.. وسط العاصفة

بدت له ظلمة الليل ظلمة سرمدية عسيرة الانجلاء.

منذ الصباح وهو يسير بسيارته، وكأنه قطع آلاف الكيلومترات وتنقل في أكثر من محافظة خلال يوم واحد باحثاً عن وميض صباح لن يولد أبداً، آفاق الدنيا ضاقت أمام ناظريه، وزاد ألمه مع كل ألمٍ ألمَّ بهما، نفذ وقود العيش في نفسه إلا لأجلهما، روحه مثقلة بما بها، مثخنة من القتال بالجبهة، ومن القتال لأجل إنقاذهما من براثن الحرب. الاستماتة لأجلهما فقط هي ما تدفعه للصمود حتى النهاية، وإن عنادته نفسه، وإن تملكه اليأس، وإن ظلت ظلمة الليل قابعة كظلم الحرب ومجرميها.

اتجهت سيارته صوب محطة (مأرب) في الجهة الغربية من شارع (مدرم) والمدينة غارقة في الظلام بسبب انقطاع الكهرباء، وحين بلغها وجد أنوارها ساطعة؛ لكنه وقف ذاهلاً لما يرى أمامه.

طوابير طويلة للسيارات والحافلات تقبع أمامها، وأنوار مصابيحها تضيء المكان بدت كالموكب الاحتفالي الكبير الذي يجوب أنحاء المدينة ليزف عروسين إلى مسكن الزوجية؛ لكن ما يجري الآن هو احتفالية من نوع آخر لا تمت للإنسانية بصلة ولا بأي مناسبة لها، اندهش في البداية؛ ثم ضرب جبهته ليبعد دهشته وهو يقول في صدمة:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ما بي دُهشت هكذا؟ هذا الأمر قد حدث من قبل حين كنت في خور مكسر، الغزاة... الغزاة يستحوذون على كل شيء، رجال غيري من المقاومة كانوا هم المسؤولين عن توفير الوقود لمركباتنا، وكل هؤلاء الآن ينتظرون حصتهم منه، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل سأظفر بشيء منه الآن؟

خرج من سيارته ليقترب من سائق السيارة التي أمامه مباشرة، وسأله قائلاً :

-كم يجب أن ننتظر حتى يأتي دورنا؟

هز الرجل كتفيه وأجابه في يأس:

-إلى أن يأتي دورك، هذا إن حالفك الحظ ونلت ما تريد، الناقلة لم تأتِ إلا مرة واحدة منذ بدأ الحرب.

تمتم في نفسه:

-رحمتك يا إلهي.

اضطر للانتظار مع الجموع التي انتظرت والقلق يتملكه، قد يرغم مجدداً على البحث عن منفذ آخر إن تأخر في المغادرة وقرر المتمردون إغلاقه مرة أخرى، ودَّ لو يعتذر من الحاضرين، ويسمحوا لعامل المحطة بأن يبدأ بسيارته قبلهم؛ لكنه لم يستطع، الكل يريد المغادرة، الكل يريد النجاة من جحيم الحرب المجنونة، الكل لديه عائلات وأكثر منه عدداً، ما يثقل عقله وفكره هو جروح ضياء التي زادتها وجعاً وأرهقتها رحلة اليوم فقط، هل بتفكيره هذا يعني بأنهم ليس لديهم جرحى مثله؟

شعر بالخجل من نفسه ومن تفكيره الأناني، عاد إلى مقعده وأسند ظهره لظهر الكرسي وانتظر دوره في ألم وملل مثلهم. لم يذق أحد منهم أي طعم للراحة في وقت يفترض فيه ذلك، الكل قلق ومتوتر، وجمر الانتظار يحرق قلوبهم، يطالعون إلى من ينال حصته بشيء من الحسد حين يغادر المحطة وقد حصد ثمار الانتظار والسهاد، خمس ساعات ثقيلة مريرة مرت والعيون ترتقب وتترصد دورها، آملين بلوغ دورهم، ثم لم يلبثوا حتى نزلت صاعقة اليأس على رؤوسهم حين أعلن عامل المحطة نفاذ الوقود منها فأحرقت بقايا أملهم، صرخ معظم من لم يأتِ دوره، واجتاحهم الغضب، وعلا صياح وجدال، وحدثت مشاجرات بين الناس وعمَّال المحطة، وتحول المكان إلى فوضى كبيرة.

انسحب يائساً بهدوء مبعداً سيارته عن المحطة ومن زحام الناس، وأوقفها في الناحية الثانية من الشارع، فكر مهموماً وهو يضع مرفقه الأيمن على المقود ثم يرخي رأسه على راحة يده وينظر لجموع الناس الغاضبة، تمتم:

-نتعذب في أحضان الوطن حتى ننال حقنا؟ هذا كل ما جنيناه، ماذا بوسعي أن أفعل الآن؟ هل أترك سيارتي لأركب أحد الحافلات؟ ضياء لن تحتمل الجلوس فترة طويلة أبداً مع اكتظاظ المقاعد بالركاب إن قررت تنفيذ هذا الأمر، حالتها لن تسمح بذلك. نظر لساعة يده المعلقة بمعصمه الأيسر فوجد عقربيها يقتربان من الثانية عشر، سيكون المنفذ بالدكة مكتظاً بوسائل النقل المختلفة التي تقل النازحين، عجز عن التفكير، وقال في يأس:

-رحمتك يا ربي، ما الحل الآن؟

لم يستيقظ من شروده وتفكيره إلا على صوت رجل، يقول له برفق:

-تبدو مهموماً أيها الشاب، هل بإمكاني مساعدتك؟

انتبه لشاب في مثل عمره شديد السمرة يقترب من مكانه، وقد علت وجهه ابتسامة صغيرة، رد عليه وهو يتنهد:

-وهل هناك غير الهم في هذا الوضع المؤلم؟ أشكرك لسؤالك؛ لكنك لا تستطيع حل مشكلتي.

عاد الشاب يقول في ثقة واطمئنان:

-لِمَ كل هذا التشاؤم يا رجل؟ الحرب لم تقصف كل الخير في البلاد ليندثر فينا، علَ في إمكاني مساعدتك، لا، بل يجب أن نساعد بعضنا بعضا في هذه الظروف.

تأمله ملياً بما استطاع أن يراه من مظهره عبر مصابيح السيارة الداخلية ومن الأضواء الساطعة بالمكان حوله دون أن يفهم سبب إلحاحه عليه، الكل يعاني، وهو أمامه لا يبدو أفضل حالا منه؛ شعر أشعث كأنه لم يهتم بتهذيبه لفترة، وجسدٌ امتصت عافيته سجائر زكمت أنفه بدخانها الذي ظلت بقاياها عالقة بسترته الزرقاء المفتوح كل أزراها، فبان قميصه الداخلي الأبيض مغبراً، وبنطاله الأسود الذي التصق به الأتربة فجعلته رماديا متجرداً من لونه الحقيقي، بدا مهلاً لنفسه كثيراً.

امتعض وجه شادي وهو يتأمل حالته ويتساءل في نفسه:

-كيف يريد مساعدتي وهو في هذه الحالة؟ بل كيف وصل إليها؟ هل بسبب الوضع الذي نمر به؟

ثم فكر، ربما لأنه لم يعرف طبيعة مشكلته بعد، فقرر إخباره حتى ينصرف، قال وهو يشير إلى المحطة:

-كنت أريد الحصول على بعض الوقود من المحطة لأغادر بأهلي من المحافظة؛ لكن للأسف، نفذ الوقود قبل أن أنال شيئاً منه.

ابتسم له ابتسامة أوسع من سابقتها حتى بانت أسنانه المصفرة، وهو يقول:

-هكذا إذن، لا شك بأن لديك حالة طارئة حتى تقلق كل هذا القلق وتستعجل الخروج، لدي بعض الوقود في منزلي وسأعطيك إياه لتتمكن من ذلك.

سر لقوله؛ لكنه سأله قائلاً ليطمئن عليه:

-وماذا عنك؟ أرجو ألا أعطل مصالحك إن ساعدتني.

هز رأسه وقال:

-لا تقلق، لو كنت ستفعل لما بادرت لعرض مساعدتي عليك.

غمرت الفرحة أعماق شادي أن سخر الله له من ينقذه من هذه المحنة فابتسم وقال:

-سأكون ممتن لك.

-منزلي في الشارع الثاني، لنذهب إليه.

اتجه الشاب للناحية الأخرى من السيارة وركب إلى جواره، ثم انطلق به إلى حيث أرشده، فسأله:

-ألا تنوي المغادرة؟

-لا، فليس لدي أحدٌ خارج المحافظة.

- ولا حتى أنا، ولكن قد تجد مكاناً آمن أفضل من هنا.

هز الشاب رأسه وقال:

-أفضل البقاء والموت بمدينتي، وإن كنت لا أستطيع المشاركة بالقتال.

-وما يمنعك من المشاركة؟

-لا أتقن استخدام السلاح.

-كنت قبل فترة مقاتل مع المقاومة ولم تكن لدي خبرة في استخدامه، ومع ذلك قاتلت؛ لكن للأسف لم أستطع الاستمرار بسبب ظروف أهلي، واضطررت للانسحاب منهم، إن كنت ستبقى فانضم للمقاومة، المدينة بحاجة لهمة كل شبابها.

آثر الصمت لفترة، ثم رد عليه قائلاً:

-لا أريد القتال، ومع ذلك أشكرك لنصيحتك.

لم يعقب شادي على كلامه رغم أنه أثار استغرابه واندهش لطريقة تفكيره، شاب وليس لديه حمية قتال رغم أنه يريد البقاء في مدينته والموت بها؟ شعر بأنه متناقض في تفكيره.

وبعد فترة وجيزة، أشار له بالتوقف أمام أحد المنازل ففعل، ثم تأمل المكان بالإضاءة الساطعة من مصابيح سيارته، في اللحظة التي نزل فيها الشاب وهو ينادي باسم أحدهم. كمثل معظم بيوت الحي، كان المنزل غارقاً في الظلام، بدا قديماً مكون من دور واحد، فقد طلاؤه في بعض المساحات من جدرانه ولم يتم تجديده، نوافذه الخشبية قديمة بعضها كان مفتوحاً خالياً من الستائر، وإلى جانبه مخزن صغير بني بالحجارة البيضاء وسقفه من حديد (الشينكو) تم تثبيته، أطل منه فتى صغير يشبه الشاب كثيراً في معظم ملامحه وحتى بعثرة مظهره وملابسه، إضافة إلى أنه كان حافي القديم يحمل مصباحاً يدوياً بيده، لحق به شاب آخر طويل القامة معتدل البنية حازم الملامح، أكبر سناً منهما ببضعة أعوام، وبدا من أنه مهتم بمظهره على خلاف رفيقيه، بعمامته البيضاء المربوطة حول رأسه، وسترته البنية المتناسقة مع فوطته البنية المخططة باللون الأسود، أثقل كتفه بندقية كلاشنكوف معلقة بها، ومسدس صغير معلق في حزامه.

رأى رفيقه الشاب يشير للفتى إشارة فترك المصباح بعهدة الرجل الآخر، ليدخل المخزن ويخرج حاملاً جالوناً متوسط الحجم، وهو يسير به متمايلا بسبب امتلائه، ذهل شادي لذلك، كيف امتلك هذه الكمية؟ اعتقد بأنه سيعطيه شيئاً يسيراً ليستطيع المغادرة به ويبحث عن الوقود بمحطة أخرى خارج المحافظة، ففوجئ بخلاف توقعاته، نزل من السيارة حين تناول الشاب الجالون من الفتى واقترب ليملأ خزان السيارة، فأشار له بالتوقف، وعقد حاجبيه وهو يقول في حدة:

-من أين حصلت على الوقود؟

رد الشاب بسرعة في ضيق ودون تردد وهو يضع الجالون على الأرض:

-ادخرته، ما المشكلة؟

-أكنت تتوقع حدوث هذه الأزمة؟

قالها بسخط، فارتبك على إثر قوله، ولم يعقب على كلامه، إلا أن الرجل الآخر قال لشادي بحدة:

-هل أتيت إلى هنا لتثرثر، أم أنك جئت لتملأ خزان سيارتك؟

التفت إليه وهو يقول في غضب:

-كم تريدون ثمناً لقاء ملئ سيارتي؟

ابتسم الشاب ابتسامة واسعة وهو يقول في مكر:

-هكذا يكون العمل، لن يكون أقل من عشرين ألف ريال.

- ماذا تقول؟!

انفجر بركان الغضب مع كلمتيه، فكلمه في وجهه لكمة قوية سريعة أسقطته أرضاً، مفرغاً كل ما في صدره من ألم ويأس وإحباط إضافة إلى الغضب، تألم الشاب من الضربة والسقوط معاً حتى أنه أصيب بسحجات في ذراعه، وتكدم خده الأيسر، وأطلق أنه ألم؛ لكن شادي لم يكترث له ولم يمهله ليتدارك حالته، فانحنى قبل أن يعتدل وجذبه من تلابيبه، وهو يصرخ في وجهه:

-تبتز أبناء بلدك في هذا الوقت أيها الحقير بدل أن تساعدهم؟ أهذا هو السبب الحقيقي لبقائك هنا؟

لم يستطع أن يرد عليه وهو يعالج ألمه وبان الفزع على وجهه حين كور شادي قبضته ليلحقه بلكمة أخرى لولا أن الرجل لكمه لكمة قوية هو الآخر مبعداً إياه عن صاحبه، سقط أرضاً، وتكدم خده هو الآخر وسالت الدماء من فمه، رغم ذلك كاد يهجم عليه من شدة غضبه إلا أن الرجل شهر مسدسه في وجهه وأوقفه عن الحركة، فقال الشاب وهو ينهض من مكانه يربت على موضع اللكمة، وابتسامته الساخرة تعود مجدداً:

-لا يهمني ما تقول، إما أن ترحل من هنا أو نتم الصفقة.

أسبل شادي جفنيه وهو يفكر كابحاً جماح غضبه ويمسح سيل الدماء من فمه بكف يمناه لا يمكن لهؤلاء أن يعملوا منفردين في هذا الاحتكار والاستغلال الذي ظهر فجأة، وما هما إلا بداية لسلسلة من المجرمين توصل في نهايتها إلى سادة هذه الحرب الهوجاء المتنعمين بخيراتها، ولا شك في أنه ليس الضحية الأولى لهذه الجريمة.

الوقت لن يسعفه للتفكير في أية قضايا أخرى الآن سوى قبول هذا الاستغلال ليتمكن من المغادرة وانقاذ أهله، قبِل بالعرض راغماً وهو يلتقط عمامته لينفضها ثم يضعها على كتفه الأيسر، وملئ الشاب خزان سيارته بالوقود ثم ودعه بعد أن رآه يركب سيارته، وهو يقول في سخرية:

- أتمنى لك رحلة آمنة، ستكون هذه اللكمة ذكرى تعارفنا.

عقد حاجبيه وهو يقول في غضب:

-خسئتم، أنتم لستم أبناء بلدي.

اكتفى بابتسامته الماكرة وهو يحصي ما جمعه من مال.

قلبه قد ازداد ظلماً وظلاماً بانغماره بأعمال السوق السوداء منعته وهو في أوج شبابه عن الاستجابة لنداءات الأرض، بل إنه تجاهلها، وربما لم يسمعها، طامعاً في أن يكون من الذين تغدق عليهم الحرب بكرمها، بينما حدجه الرجل بنظرات غاضبة حتى اختفى، وكأنه حارس شخصي للشاب.

انطلق بسيارته ولسانه لا يفتر عن الدعاء لأجل أهله وبلاده، أن تكون فريسة للحرب والظلم والابتزاز بممتلكاتها وثروتها في هذا الظرف الصعب.

في نهاية جولته، أسرع يلبي طلبات أهله قبل أن يعود أدراجه إلى الفندق، ثم نظر لساعة يده فوجد عقربيها عند الثانية، سيحل الفجر بعد ساعتين الموعد يقترب، يجب عليه الإسراع والانطلاق باكرا.

ولما وصل، وجد أمه نائمة على السرير الآخر، وكذلك ضياء التي ظلت إصابات جسدها مكشوفة فظل الساتر في موضعه، أسرع يجمع كل الأشياء التي استخدمت ليعيدها إلى الحقائب ما عدا ما يحتاجونه قبيل المغادرة، ثم بسط بطانيته على الأرض ومدد جسده المتعب عليها، وغرق في سبات عميق من فوره.

بعد فترة استيقظ مفزوعاً، فوجدهما جالستين على الكرسيين حول طاولة الطعام وهما تتناولان الخبز وطبق الفاصوليا وتحتسيان الشاي العدني الذي أحضره لهما، فابتسمتا حين انتبهتا لاستيقاظه، فقالت مها في إشفاق:

-لماذا لم توقظني لترتاح على السرير يا ولدي؟ أنت متعب.

تجاهل سؤالها وهو يسألها في لهفة:

-كم الساعة الآن؟

- الخامسة والنصف.

قفز من رقاده وقال:

- يا إلهي، يجب أن نغادر.

سألته في دهشة:

- إلى أين بهذه السرعة؟

- خارج المحافظة، هناك منفذ بري سيفتح بالدكة، وسيسمح للأسر النازحة بالمغادرة عبره.

تنفست الصعداء وقالت:

- الحمد لله، حسنا لا بأس، تناول شيئا وعد لغفوتك قليلاً، وجهك مرهق جداً.

-ليس لدينا وقت للراحة يا أمي، لا بد أن نخرج من هذا الجحيم.

اقترب منهما ليتناول شيئاً مما على الطاولة، فنهضت لأجل أن يجلس مكانها، حاول منعها لكنها رفضت وهي تقول:

-لقد شبعت والحمد لله، هيا اجلس.

امتثل لأمرها وجلس، وتناول بسرعة ما قدمته له، ثم نظر لضياء وجدها تتململ في جلستها، وهي تمدد طرفها السفلي الأيسر بألم، فالحرق منتشر على الجهة الخارجية من فخذها وساقها ملتفا حول ركبتها قليلاً معوقا لحركتها، وإن مشت سريعا آلمتها، كانت تخفيه بثوبها الأزرق الطويل الفضفاض، أما ذراعها اليسرى التي احتضنتها بحجرها فقد غطاها الضماد من أسفل الكم القصير إلى رسغها، إصابة وجهها هي التي ظلت مكشوفة وقد بقيت على حالها، كانت تحاول أن تمضغ طعامها على مهل حتى لا توجعها كثيراً وأيضا لتطمئن من حولها، لم يخفَ عليه ما بدا عليها من ألم، كافحت لتخفيه قدر استطاعتها، وإعياء لبسها منذ خروجهم من المجمع الصحي، قال لها:

-كيف تشعرين الآن؟

ابتسمت له ابتسامة صغيرة وهي تقول:

-أفضل بفضل الله.

-عندما نتمكن من الخروج من هذا الحصار سآخذك إلى المستشفى، لا تقلقي.

قالت وهي تهز رأسها:

-أنا بخير، أرجوك لا تقلق.

قال في نفسه قلقاً:

-أتمنى حقاً ذلك.

قالت مها لتطمئنه:

-الحمد لله الحمى قد زالت، وإن شاء الله سأواظب على دواءها حتى تتحسن.

اكتفى بهز رأسه، ثم سألته في قلق وهي تتأمل وجهه:

-ما هذه الكدمة التي على وجهك يا ولدي ولم ملابسك مغبرة هكذا؟ هل حدث شيء؟

- لا تقلقي عليَّ يا أمي، أنا بخير، دعونا نسرع فقط.

عند الساعة السادسة والنصف، أخذ الثلاثة يستعدون للمغادرة، أخذت مها تساعد ضياء على ارتداء عباءتها وحجابها، بينما أخذ شادي الحقائب ونزل بها ليرتبها بحقيبة السيارة، ثم صعد ليساعد أخته على النزول وهو يسند جسدها إليه ويساعدها على المشي، وساعدها على الجلوس بكرسي المقاعد الخلفية، وهو يقول في رفق:

-استلقي يا ضياء متى ما أحسستِ بالتعب، رحلتنا لن تكون سهلة.

هزت رأسها، ثم صعدت مها على المقعد المجاور له بعد ما اطمأنت عليها، وجلس بدوره على مقعده لتنطلق السيارة بهم صوب الدكة، ولما وصلوا ناحية الخط الجسر البحري وجدوا طوابير طويلة من السيارات والحافلات عند نقطة التفتيش بها، عدد الأسر النازحة يقترب من ثلاثين، قام المتمردون بتفتيش كل الأمتعة، وكل الرجال، ثم جاء دوره ووصل إلى النقطة حيث فتشه رجلان ثم فتشا سيارته، وبعد دقائق سُمح لهم بالتحرك، الشمس مع ارتقائها في السماء بدأ لهيبها يتصاعد، ازداد قلقهما على ضياء التي استلقت على المقاعد وتظاهرت بالنوم

وحرارة الشمس وجو السيارة وملابسها وضماداتها تضاعف آلام جروحها، وتخزها كإبر على الجلد المكشوف والمتهيجة أعصابه تقلق راحتها وتختبر صبرها في هذا الوقت الحرج، بالإضافة إلى رقودها غير المريح على المقاعد، أغمضت عينيها حتى لا ترى وجوه المتمردين ولا المعاناة الخالدة في كل ما حولها.

ثم سُمح لهم بالمرور جهة الساحل ليقطعوا شوارع بوسط خور مكسر ويواصلوا بعدها طريقهم شمالاً إلى منطقة العريش، ورأى شادي ومها بألم حجم الدمار والخراب؛ الشوارع الميتة الخالية من أي حياة، البيوت المحطمة، البقع الخضراء لزينة الطريق تصحرت، البحر المطل عن يمينهم بدا كئيباً قاتما بشدة يودع أهله بحزن عميق مع إطلالة الشمس واقترابها من قبة السماء، ومدرعات الأعداء ودباباتهم مستعدة لأي تمرد من النازحين لتبيدهم بقذيفة واحدة، كل ذلك لم تره ضياء وهي تقاوم ما بها، ثم انعطفوا عبر جولة الرحاب ليواصلوا دربهم عبر ساحل أبين.

أخيراً، أقبلت الحرية أمامهم، أو هكذا يظنون وهم يخرجون من المحافظة، ويواصلوا رحلة النزوح، قال في نفسه بألم:

-هل سأعود إليكِ مرة أخرى يا عدن؟

حزن طغى على قلوبهم جميعاً، وكذلك ضياء التي لا تزال راقدة تتظاهر بالنوم وهي تستمع فقط لما حولها وتفهم ما يجري، الفرح بالحرية والنجاة لم يكن حاضراً، لقد فقدوا كل شيء لهم بالمدينة، فما الذي سيحنون إليه؟

الذكريات المتبقية في عقولهم هي من ستزورهم أينما حلوا، قالت مها محاولة تجاوز حزنها وطمأنة ولديها:

-علينا أن نختار ما فيه الأفضل، والأهم الآن أن نسعف ضياء.

رد عليها بحزم:

-صدقتِ أمي، هيا بنا.

تابع سيره في الدرب الإسفلتية الواسعة الواصلة إلى أبين، ورغم كل مساعيهم لم يشعروا بالأمان حتى بعد خروجهم، كيف لا ومضمار الصراع بكل أرجاء الوطن، الرحلة التي من المفترض أن تستغرق ستة ساعات بدأت تتمدد ثوانيها و دقائقها، نقاط التفتيش تستوقفهم في طول الخط، تفتش أمتعتهم، أزيز الرصاص يُسمع من بعيد من وقتٍ لآخر أو يشاهدون أعمدة الدخان تجتاح صفاء السماء جراء الانفجارات، ويصلهم دويها أحياناً فترعبهم، يخشون أن تصيبهم قذيفة طائشة لا هدف لها. لا الرحيل آمن ولا حتى البقاء، الموت صار منية من أثقل الفزع والوجع قلبه، وما من سبيل للخلاص إلا بتحرير الروح من الجسد، لتسكن الروح لبارئها، ويترك الجسد لعبث دنيا طال ليلها واشتد قتامة رغم كل شعاع الشمس التي تضيئ نهارها.

وبعد أن اجتازوا أحد النقاط، قرر شادي التوقف حتى تتفقد والدته حروق ضياء، فيخرج من السيارة ليظل واقفاً يمدد أطرافه قليلاً وفي نفس الوقت يسمح لها بأن تأخذ راحتها في

القيام بعملها في تنظيف جروحها ومعالجتها وجعلها مكشوفة لبعض الوقت ثم يغادروا المكان ويواصلوا سيرهم، تكرر هذا الأمر مرتين ورغم ذلك ظل الإعياء ملازماً لضياء.

وبعد انطلاقهم بساعتين، شعرت بضعف الرؤية أمامها والإعياء يكاد يهوي بجسدها إلى قاع الضعف، رغم ارتجاج السيارة حاولت أن تقاوم، أسندت كتفها الأيمن إلى إطار النافذة رغم الاهتزاز، فوقع بصرها على مرآة السيارة اليمنى التي كانت إلى جوار مقعد مها، ذهلت وفتحت عينها اليمنى في صدمة، أما العين اليسرى فلم تمتثل لها، كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها وجهها بعد إصابتها، وترى ندبة الحرق باتساعها، ترى النقيضين الذين حواهما وجهها، شهقت في فزع، التفتت مها إليها، فرأتها رغم ألمها تبحث في حقيبة يدها الموضوعة قربها في سرعة لتخرج مرآة صغيرة وتنظر لوجهها، دمعت عيناها وهي ترى دموعها تنهمر على خديها، وتعض على شفتها السفلى بألم وتحسس موضع الإصابة، اتضحت حدود الحرق في مرحلة الالتئام وبدت البشرتين مفصولتين تماماً ولن تتجاوز أحدهما الأخرى أبداً، نظرت لتلك العين المنكمشة وكأنها تستنجد بأختها لكن النيران لم ترحمها، أدركت الآن لِمَ كانت تشعر بأن رؤيتها مشوشة ومجال النظر قد تضيق بالجهة اليسرى، لم تكن تعي شيء من ذلك قبل الآن بسبب الإعياء الذي رافقها منذ إصابتها، خافت من انعكاسة وجهها فكيف بالناس حولها؟ لا شك في أنها أرعبتهم وهي تجلس دون أن تخفيها أحياناً، أشارت مها لشادي بالتوقف ففعل، وأسرعت تنزل لتجلس إلى جوارها وهي تحتضنها تقول:

-ستكونين بخير يا ابنتي، ستختفي هذه الإصابة، سنعمل على ذلك يا ضياء، اطمئني.

واصلت بكاءها وهي تقول لها بألم يسحق رفات الأمل الباقي في أعماقها:

-لِم حدث معي هذا يا أمي؟ لِم؟... ماذا فعلت حتى أصابني الغزاة هكذا؟ كنتُ... كنتُ في البيت فقط.

ردت عليها وهي تغالب دمعها وتتجرع غصة حزنها:

-ستتحسنين يا ضياء، لا تقلقي.

لم ينظر إليهما، وإنما وضع يمناه على صدره بقوة، ألم فظيع اجتاح قلبه شعر برغبة كبيرة في انتزاعه، وانتزاع إحساسه بأنه سبب مأساتها، فنشب أطراف أصابعه على عضلات صدره، وهو يقول في نفسه ودمعه ينهمر:

-سأبذل جهدي لأجلكِ، لا تبكِ... أرجوكِ.

ولما هدأت ظلت مها جالسة إلى جوارها ثم استأنفوا الرحلة.

لم تحتمل ضياء فكرة أن تمر إحدى سيارات النازحين قربها ويرى راكبوها منظر وجهها المفزع ومظهرها الجديد التي منحتها إياها الحرب ولا حتى أن يراه المتمردون، فظلت مستلقية على حجر مها معظم الوقت محتملة مطبات الدرب المؤلمة، أو تخفي إصابتها بضمادها حين تجلس معتدلة وترغب في تغيير وضعها.

لم تعد تلك الفتاة الجميلة مثل قريناتها، أصبحت شخصاً آخر تبدلت ملامحها وإن ظل قلبها كما هو؛ لكن... لماذا؟

لم تكن تدري، أخذت دموع الحسرة والقهر تنهمر من عينيها، لم تكتفِ الحرب بأن شردتها عن مدينتها حتى شوهت جمال وجهها، تشعر الآن بأنها ستكون غريبة بغربتها وغريبة بشكلها وسط من حولها، بينما ظلت مها تمسح على رأسها محاولة التهوين على ما في قلبها بصمت.

ثم استأذنتهم الشمس لتختفي خلف الجبال، فبدت خيوط شعاعها محمرة خجلة من الانسحاب عن دربهم، ومجبرة على تركهم لوحشة الليل وسطوة ظلمته، فاختفى البحر والصحراء الذين كانا يحفانهم طوال الدرب، لحظتها قرر شادي مواصلة دربه إلا أنه سمع ضياء تئن من إصاباتها، لم تستطع البقاء مستلقية، والاهتزازات تفتق جروحها التي بالكاد بدأت تلتئم، لم يحتمل ذلك وأوقف سيارته جانباً، والتفت إليها فوجدها جالسة ويدها اليمنى على ذراعها المصابة تحاول تخفيف ألمها، كاد يتكلم لولا أن بادرته قائلة محتملة كل ألمها:

-لا تتوقف يا أخي، الدرب خطرة ولا أمان فيها، تابع سأحتمل... سأحتمل... آسفة لقلة صبري.

رد عليها في إشفاق:

-لكن سلامتك تهمني يا ضياء، دعينا نسترح قليلاً لأجلك.

-وهل من السلامة أن نظل هنا؟ لا أحد يضمن ذلك، لا أحتمل أن يصيبكم أذى بسببي، سأحتمل، المهم أن نكون بعيدين عن المتمردين وشرورهم.

أما مها، فقد بدت حائرة بالفعل، ضياء على حق، وفي الوقت ذاته كانت مشفقة عليها وتتمنى لو تحقق ما اقترحه شادي الذي أسبل جفنيه ولم يعقب على كلماتها، الوقت يداهمهم فعلاً ولا خيارات تريح فكره وقلبه ليطمئن، لكنه قال لها:

-حسناً، تمددي قليلاً ريثما أملأ خزان سيارتي.

لم تعقب على كلماته واستلقت على جنبها الأيمن بمهل وهي تحتمل ألمها ثم أغمضت عينيها، ثم التفت لأمه وطلب منها أن ترتاح بدورها، قالت له:

-لا سبيل للراحة إلا إذا وصلنا.

نظر بعينيه ناحية ضياء وهو يقول لها:

-لابد أن ترتاحي قليلاً، الإعياء بادٍ عليكِ.

فهمت مها قصده، وامتثلت لأمره وهزت رأسها، ومدد لها كرسيها للوراء لتغفو قليلاً، بالفعل كان الإعياء مرتسماً على ملامح وجهها، لحظات ووجد سنة النوم تخطفها، ابتسم وخرج ليقوم بمهمته رغم شعوره بالوهن متغلغلاً في كل أنحاء جسده، وتصلب مفاصله من طول الرحلة، ودوار ظل مطبقاً على رأسه، قرر بعد تعبئة السيارة المشي بعض الوقت في الجوار لعل نسمات الليل تنعشه أو حتى إن تمدد على الأرض نال شيئاً من الراحة، عشر دقائق فقط وعاد بعدها لمقعده، فوجد ضياء تتحرك كثيراً وتزم شفتيها والدموع تنهمر من عينيها

المغمضتين في صمت، وعلى محياها ألم شديد، قلق، اقترب من رأسها جهة الباب حتى لا يوقظ أمه وقال بصوت منخفض:

-ضياء، ما بك؟

انتبهت له، وفتحت عيناها وقالت بنبرة لم تخلُ من الألم:

-لا شيء.

رد عليها في قلق زائد:

-لا شيء وتبكين؟! ما الذي يوجعك يا أختي أخبريني؟

عادت تغمض عيناها وتقول محتملة ما بها:

-ومالذي يوجعني؟! أهناك شيء غير هذه الجروح يا أخي؟

مد يديه ليتفقد جروح ذراعها اليسرى، أبعدتهما وهي تقول في رفق:

-لا تقلق علي، أرجوك، المهم متى...

قطعت كلمتها حين وقعت كفها اليسرى على يده فأحس بحرارة جسدها، فهتف في جزع:

-ضياء، أنتِ محمومة.

هزت رأسها وهي تقول:

-نعم، لكني تناولتُ دوائي قبل قليل، لا تقلق ستزول الحمى والألم معاً وسأنام.

لم يشعر بالاطمئنان من كلماتها، ربما لا يزال أمامه ساعة أو ساعتين حتى يصلوا إلى المكلا، ظل قلبه مرهقاً كجسده لأجل أخته ولكل معاناة مرت بها، قرر الاهتمام بها حتى تخف

حرارتها قليلاً، أخذ منشفة صغيرة من حقيبته الموضوعة بحقيبة السيارة ثم بللها بعض الماء من قارورته ووضعها على جبينها، انتبهت له، قال مشيراً لها بالصمت وعلى وجهه ابتسامة تشجيع صغيرة:

-سأهتم بك حتى تنخفض حرارتك بسرعة، استرخي.

أرادت أن تكلمه فمنعها، وهو يقول:

-رجاء لا تتكلمي، ونامي. ابتسمت وأسبلت جفنيها لتحاول النوم، كانت سعيدة بمساعدته ووقوفه إلى جانبها وإثارها على نفسه رغم إعيائه ومعاناته هو الآخر.

وبعد ساعة أحس بوطأة الحمى تخف عنها، عاد لمقعده وانطلق من جديد، ورغم مساعيه لأجلها إلا أنها كانت تزداد وهناً ووجعاً من مطبات الدرب، ظل قلقاً حتى جاءت اللحظة التي انتظروها جميعا.

أطلت أمامه بيوت متواضعة صغيرة وأكواخ الخشبية، وظلت الجبال تقترب من الدرب الإسفلتية على الجهة اليسرى للطريق، بينما ظل البحر على الجهة اليمنى، ونسماته مع برودة الليل تخفف شيئاً من معاناتهم، كانت تلك سواحل (بروم) الواقعة غرب مدينة (المكلا)، قطعوا الدرب مواصلين الطريق نحو المكلا عاصمة محافظة حضرموت.

اتجه شادي بأهله نحو مدينة جديدة، عالمٌ آخر يأمل الاستقرار فيه، إلى مدينة لم يرها هو أو أي فرد من أهله في حياتهم قط.

******